# الأسطورة في المثل العربي القديم

د. نماح علي أحمد

احتفي الانسان العربي منذ فجر التاريخ بالأمثال وأولاها اهتمامه ورعايته ، فهو بطبعه يميل إلي ضرب المثل خاصة في العصر الجاهلي حيث عاش الانسان العربي يعمل فكره وذاكرته في البحث عن الوجود الذي يحيط به وما صاحبه من ظواهر كونيه أوحت إليه بالتعبير عن أحاسيسه ومشاعره .

والمثل لفظة سامية نجدها في جميع اللغات السامية وتعني التشبيه والموازنة أو المقارنة ، وأكثر ما تنشأ الأمثال في طور البداءة من الشعوب ، وأكثر الشعوب ميلا الي هذا النوع الشعوب السامية وأكثر ما يقوم التشبيه في الأمثال بين الانسان والحيوان ، ويستخلص من ذلك التشبيه سنة للحياة ، أو طريقة للابتعاد عن منقصة ، أو تحقير لحالة من الأحوال ولذلك نري العرب أولوا المثل الاهتمام الكبير لما فيه فن طواعيه في التعبير عن المورد والمضرب بما يثري اللغة العربية ويجعلها في الذروة بحيث لا تقف أمام مشهد من المشاهد أو منظر من المناظر ، ولذلك نري القرآن الكريم بماجمع من مواطن الاعجاز يلفت أنظارنا إلي أهمية المثل في رحاب التعبير فيقول المولي تبارك وتعالي :

( وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحيها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ) (٢)

---

(١) الحكم والامثال ص ٩ حنا الفاخوري . دار المعارف .

(٢) سورة ( يس ) الآية ٧٨ :-

ويقول تعالي :

( يا أيها الناس ضرب مثلا فاستمعوا له ) و ( ضربنا لكم الأمثال كل ذلك يشير إلي أهمية الأمثال في اللغة العربية ومالها من فائد عظمي في تراثنا الأدبي الخالد مما جعل علماء العرب يحتفون بها من أدباء ولغويين ومؤرخين ومفكرين بجمع تلك الأمثال ودراستها وتفسيرها والبحث عن أصولها ، فوضع المفضل الضبي ( ٧٨٦م) كتاب الأمثال ووضع إبو عبيد القاسم بن سلام الهروي البغدادي ( ٨٣٧م ) كتاب الأمثال وجمع حمزة الأصفهاني ( ٩٦٠م ) عددا كبيرا من الأمثال في كتاب لا يزال مخطوطا في مكتبة مُوينخ وقد نقل عنه الميداني قسما كاملا جعله في كتابه مجمع الأمثال ووضع أبو هلال العسكري ( ١٠٠٥م ) كتاب ( جمهرة الأمثال ) ووضع أبو الفضل أحمد بن محمد بن ابراهيم الميداني النيسابوري ( ١١٢٤م ) كتاب ( مجمع الأمثال ) وقد اهتم من غير هؤلاء الكثيرون من الأدباء والمفكرون بالحديث عن الأمثال كالماوردي صاحب ( أدب الدنيا والدين) والشيخ ابراهيم الأحدب صاحب فرائد اللآلي في نظم مجمع الأمثال(١)

## الخيال العربي ودوره في خلق الأساطير :

لعب الخيال دورا كبيرا في وجود الأسطورة في المثل العربي القديم ؛ لأن العربي في طور البداوة كان يسبح بفكره وخياله فيما كان يحيط به من مشاهد الوجود وظواهر الكون .

( فالخيال هو الملكة التي يستطيع بها الأدباء أن يؤلفوا صورهم

---

(١) راجع المرجع السابق صـ ١١، ١٢

وهم لا يؤلفونها من الهواء وإنما يؤلفونها من احساسات سابقة لا حصر لها تختزنها عقولهم وتظل كامنة في مخيلتهم حتي يحين الوقت فيؤلفوا منها الصورة التي يريدونها صورة تصبح لهم ، لأنها من عملهم وخلقهم ، والخيال عند الأدباء يقوم علي شيئين :

أولا : دعوة المحسوسات والمدركات ثم بناؤها من جديد ومن هنا كان الخيال يفترق عن التفكير ، وإن كان كل منهما يستعير مواده من الواقع وذلك لأن التفكير يقوده غرض محدود هو محاولة معرفة الحقيقة ، فهو استكشافي محض ، لا يفترض شيئا ولا يخلق علاقات جديدة بين الأشياء ولا يغير في اشكالها وعناصرها ، أما الخيال فلا يقف عند ذلك بل يعمد إلي التغيير في هذه العناصر غير مقتنع بعلاقاتها بل يضيف إليها علاقات جديدة تنزعها من واقعها نزعا في كثير من الأحيان .

ثانيا : وهي أن التفكير الموضوعي ، لا يبدل في الحقائق الواقعة ، إنما يحاول فهمها وبيانها بشكلها اشكالا جديدة ، أشكالا يبعث فيها من روحه ما يعيدها خلقا نابضا بالحياة (١).

فمن منطلق هذا الخيال حاول العربي أن يرسم الأساطير في المثل العربي القديم حيث كان الجو مهيأ لايجاد مثل ذلك النوع بما يتمشي مع العقلية العربية آنذاك لأن الأسطورة ضرب من الخيال الذي يجول بخواطر الأديب بما يحال وجوده في الواقع المشاهد لكن

(١) في النقد الأدبي . د/ شوقي ضيف . دار المعارف ص ١١٧

الأديب ينسخ له صورا واشكالا تقربه من الحقيقة الواقعة ·

وفي العصر الجاهلي نري الخيال له أهمية كبيرة لدي الأدباء في خلق مثل هذه الألوان الخرافية بما يتمشي مع طبيعة الخياة ومتطلبات المجتمع حيث البداوة والصحراء المترامية والسماء الصافية والنجوم اللامعة كل ذلك هيأ للخيال العربي جوا من الحرية في التعبير علي نحو ساذج من التعقيدات العقلية والفنية (١)

والحقيقة أن الأمثال العربية بما تضمنته من تجارب عديدة لألوان الحياة العربية يشهد بما للعرب من تراث أدبي رائع منذ فجر التاريخ ، فمن الدراسة لهذه الأمثال ( تبدو لنا الفلسفة الجاهلية فلسفة أخلاقية عملية ، بعيدة عن الماورائيات فلسفة مادية روحانية تحاول أن تعالج حسن التصرف في حياة البادية علي أحسن طريقة ممكنة للحفاظ علي الحياة الذاتية والقبلية وللحفاظ علي الشرف الذاتي والقبلي وللحفاظ وللحفاظ علي الصيت الحسن والحياة الطيبة علي ألسنة الناس ) (٢)

وسوف نتعرض لبعض الأمثال العربية لنوضح من خلالها دورالخيال العربي في رسم هذه الأساطير ·

١ - جاء في كتاب مجمع الأمثال للميداني هذا المثل ( في بيته يُؤتَي الحكَمُ ) هذا مما زعمت العرب عن السن البهائم · قالوا : إن الأرنب التقطت ثمرة ، فاختلسها الثعلب فأكلها ، فانطلقا يختصمان الي الضب ، فقالت الأرنب : يا

(١) راجع الأدب المقارن للدكتور خفاجة ص ٧٦
(٢) الحكم والأمثال : ص ١٧

أبا الحسل ، فقال سميعا دعوت ، فقالت : اتيناك لنختصم اليك قال : عادلا حكمتما ، قالت : فاخرج إلينا ، قال في بيته يؤتي الحكم ، قالت : إني وجدت ثمرة ، قال : حلوة فكليها، قالت : فاحتبسها الثعلب ، قال : لنفسه بغي الخير ، قالت : فلطمتـــه، قال بحقك أخذت ، قالت : فلطمني ، قال حر انتصر ، قالت : فاقض بيننا قال: قد قضيت ، فذهبت أقواله كلها أمثالا ·

فهـذا المثل الذي بين أيدينا ( في بيته يؤتي الحكم ) خلاصـة لهذه الحادثة التي حدثت بين الأرنب والثعلب وإنك لتحس معـــي مدي السذاجة التي خيمت علي احداث هـذا المثل وقد استطـــاع الأديب أن يجعل من هذه الحيوانات اشخاصا يتحدثون ويتخاصمـون ويحتكمون إلي حكم من جنسهم ، فهذا الخيال الفطري الذي رسمـــه المؤلف علي جو هذا المثل تحث فيه الارتياح رغم غرابته وجنوحـــه إلي الاسطورة حيث يتحدثون ويفكرون وذلك مالم تشاهده في الحياة فهي قصة خرافية لا تجر العادة بها وحيث أن الأديب العربي استطاع أن يرسم مثل هـذا اللون بخياله فإننا نهيب بتلك العقلية العربيـة التي استطاعت أن تلمح هذا النوع الأدبي منذ فجر التاريـــخ العربي وان دل هـذا المثل علي شيء فإنما يدل علي بساطة الفكـــر واتساع الخيال وذلك مما يناسب البداوة العربية في مهدها الأول ·

٢ ـ وجاء أيضا في كتاب مجمع الأمثال هذا المثل ( كيف أعاودك وهذا أثر فأسك ) [١] أصل هذا المثل علي ما حكته العـــرب علي لسان الحية أن أخوين كانا في إبل لهما فأجدبت بلادهمـــا

(١) مجمع الأمثال للميداني صـ ١٤٥ جـ٢ مطبعة السنة المحمدية ·

وكان بالقرب منهما واد خصيب ، وفيه حية تحميه من كل أحد فقال أحدهما للآخر : يا فلان لو أني اتيت هذا الوادي المكلئ فرعيت فيه إبلي وأصلحتها فقال له أخوه : إني أخاف عليك الحية ، ألا تري أن أحدا لا يهبط ذلك الوادي إلا أهلكته،قال : فوالله لأفعلن ، فهبط الوادي ورعي به إبله زمانا ، ثم إن الحية نهشته فقتلته ، فقال أخوه : والله ما في الحياة بعد أخي خير ، فلأطلبن الحية ، لأقتلنها أو لأتبعن أخي ، فهبط ذلك الوادي وطلب الحية ليقتلها ، فقالت الحية له : ألست تري إني قتلت أخاك ؟ فهل لك في الصلح ـ فأدعك في هذا الوادي تكون فيه وأعطيك كل يوم دينارا ما بقيت ؟ قال أوفاعلة أنت ؟ قالت : نعم ، قال إني أفعل ، فحلف لها وأعطاها المواثيق لا يضرها ، وجعلت تعطيه كل يوم دينارا، فكثر ماله حتي صار من أحسن الناس حالا، ثم إنه تذكر أخاه فقال: كيف ينفعني العيش وأنا أنظر إلي قاتل أخي ، فعمد الي فأس فأخذ ثم قعد لها ، فمرت به فتتبعها فضربها ، فأخطأها ودخلت الحجر، ووقعت الفأس بالجبل فوق حجرها فأثرت فيه ، فلما رأت ما فعل قطعت عنه الدينار ز فخاف الرجل شرها وندم ، فقال لها: هل لك في أن نتواثق ونعود إلي ما كنا عليه ، فقالت : كيف أعاودك وهذا أثر فأسك . يضرب لمن لا يفي بالعهد ، وهذا من مشاهير أمثال العرب .

قال نابغة بني ذبيان :

وإني لألقي من ذوي الغيّ منهم .. وأصبحت نشكو من الشجو ساهره

[illegible] لقيت ذات الصّفا من حليفهـــا
[illegible] سرية المال غبا وظاهـــــره

و[illegible] أن ث[illegible]
وأثل موجـودا وســد مفاقـــــــره

[illegible] لي فاسي يحـ[illegible] ـــا
مذكرة من المعـــاول با تـــــــره

[illegible] لها من فوق حجـر مشيـــــد
ليقتلها أو يخطيء الكـــف بـــادرة

فلما وباها الله ضربـ[illegible]
[illegible]ين لا تغمضـــن ناظـــــــره

فقال : تعالي نجعل الله بـ[illegible]
علي ما كنا أو تنجـزي لـي آخـــــره

فقالت : يمين الله أف[illegible]ل إننـــي
رأيتك مشؤما يمينـك فاجـــــره

أبي لي قبـــر لا يزال مقابلـــــي
وضربة فأس فوق رأســي فاقـــــره

فالاسطورة واضحة في هذا المثل صراع مرير بين الحية وبيـــن هذا الرجل الذي فقد أخاه فهو موقور عنها فلا ينسي هـذا الثـــأر ولا يمكن أن يسالمها علي الرغم مما أعطته من مال ، وجانب الأسطورة في الحديث الذي دار بينه وبينها وذلك ما لم نره في ظواهر الحيـاة فهو مخالف للمألوف وبعيد عن الحقيقـة قريب من الخرافية وذلـــك ما يناسب الخيال العربي في مهده الأول فلا يعقل أن يكون حدث ذلك علي حقيقته .

فالخيال هو الذي نسج هـذه الأسطورة لتصبح مثلا يضرب لمـن لا يفي بالعهد ويحاول الغدر ولكن المؤلف أخذ مادته من نسج الخيال وجعل الحية تتحدث مع هـذا الرجل وتبادله الحديث .

٣ - وجاء في مجمع الامثال هذا المثل : ( كذلك النجار يختلف ) فهو يضرب مثلا للمختلفين وأصله أن ثعلبا اطلع في بئر ، فاذا أتي في أسفلها دلو ، فركب الدلو الأخري فانحدرت به وعلت الأخري ، فشرب وبقي في البئر ، فجاءت الضبع ، فأشرفت فقال لها الثعلب : انزلي فاشربي ، فقعدت في الدلو ، فانحدرت بها وارتفعت الأخري بالثعلب ، فلما رأته مصعدا قالت له : أين تذهب ؟ قال : كذلك النجار يختلف ، فهبت مثلا .

فالنجار هو الأصل ومنه قولهم : كل نجار الايل نجارها ) والمتأمل في هذا المثل يلمس فيه الاسطورة التي صنعها خيال المؤلف لهـذا المثل فالثعلب يخاطب الضبع ، وبما عنده من دهاء استطاع ان [illegible] عليها ، وما ترتسم به الاسطورة هنا هو جانب الحديث الذي دار بين الثعلب والضبع كما هـو في أصل هـذا المثل .

٤ - وجاء في مجمع الأمثال هذا المثل ( لا أحب تخديش وجه الصاحب ) [٢] قال يونس : تزعم العرب أن الثعلب رأي حجرا أبيض بين لصبين [٣] ، فاراد أن يغتال به الأسد ، فأتاه ذات يوم فقال : يا أبا الحارث الغنيمة الباردة شحمة رأيتها بين

(١) مجمع الأمثال للميداني جـ ٢ ص ١٤٥
(٢) مجمع الامثال للميداني جـ ٢ ص ٢٤٠
(٣) اللصبان . مثني لصب بكسر اللام وسكون الصاد وهو الشعب الصغير في الجبل .

لصبين ، فكرهت أن أدنو منها ، وأحببت أن تولي أنت ذلك ، فهلم لأريكها ، قال : فانطلق حتي قام به عليه فقال : دونـــك يا إبا الحارث ، فذهب الأسد ليدخل فضاق به المكان ، فقال له الثعلب : أردس برأسك أي أدفع برأسك ، قال : فأقبل الأسد يردس برأسه حتي نشب ، فلم يقدر أن يتقدم ، ولا أن يتأخـر ثم أقبل الثعلب يخوره أي يخدش خورانه [١] من قبل دبره،فقال الأسد ما تصنع يا ثعاله ؟ قال : أريد لاستنقذك قال: فمن قبل الرأس إذن ، فقال الثعلب لا أحب تخديش وجه الصاحب .... فضرب هـذا المثل للرجل يريك من نفسه النصيحة ثم يغدر .

فبالنظـر في هذا المثال وما جري في أحداثه نري الأسطورة واضحة فهي من نسيخ الخيال الذي افترضه المؤلف ، فما حدث بين الأســـد والثعلب وقد حال صانع هذا المثل أن يأتي لنا بالأسد فهو مثال للقـوة والثعلب الذي هو مثال للضعف والدهاء والمكر وذلك مما يدل علـــي أن العقلية العربية كانت علي قدر في التفكير لصنع مثل هذه الأساطير الخيالية التي نلمسها في هذا المثل .

٥ ـ وجاء أيضا هذا المثل في مجمع الأمثال : ( انما اكلت يوم أكـل الثور الأبيض ) [٢] .

يروي أن أمير المؤمنين عليا رضي الله عنه قال : إنما مثلي ومثل عثمان كمثل أثوار ثلاثة كن في أجمه أبيض وأسود وأحمر ، ومعهن

---

(١) الخوران : مجري الروث ، ويقال : طعنه فخاره إذا أصاب خورانه
(٢) مجمع الأمثال للميداني جـ ١ صـ ٢٥

فيها أسد فكان لا يقدر منهن علي شيء لاجتماعهن عليه ، فقال للثور الأسود والثورالأحمر لا يدل علينا في اجتمعنا إلا الثور الأبيض فإن لونه مشهور ولوني علي لونكما فلو تركتماني آكله صفت لنا الأجمة ، فقالا : دونك كعنة ، فأكله ، ثم قال للأحمر لوني علي لونك فتعدني آكل الأسود لتصفو لنا الأجمة فقال دونك فكله ، فأكله ، ثم قال للأحمر : إني آكلك لا محالة فقال دعني أنادي ثلاثا ، فقال افعل فنادي آلا إني أكلت يوم أكل الثور الأبيض .

وإننا نلاحظ في هذا المثل الذي ذكره الامام علي كرم الله وجهه إن صحت هذه التسمية إليه التحذير من التفكك والتفريط بين عامة المسلمين وقد ذكر لنا أحداث هذاالمثل للتوضيح والعظة وذلك ليقترب الهدف من المسلمين حتي لا يصيبهم ضعف أو هوان فيصبحون فريسة للاعداء يتخطفهم الطير والأسطورة واضحة جاءت من نسج الخيال . فحينما فرض الثوران الأسود والأحمر في الثور الثالث الذي كان معهم يشد من أزرهم وتقوي به شوكتهم رأينا كيف كانت العاقبة نتيجة لهذا التفريض الذي أودي بهم الواحد بعد الآخر ولذلك أدرك الثور الأحمر انه أكل من البداية حينما فرط في أخيه .

والواقع أن الامثال العربية كان لها هدف ترمي إليه لدي المؤلفين لها وعامتهم من الحكماء والدعاء لدي العرب ، فهم ينشدون من وراء هذه الامثال تضحل بعد الدعوة الاسلامية التي جاء بها رسولنا محمد صلي الله عليه وسلم ومما جملته من ارشادات نيرة، فلم يترك مجالا لمثل هذه الأمور ( ما فرطنا في الكتاب من شيء ) .

فهذه الأمثال كانت رائجة في العصر الجاهلي وسارت بعد ذلك أمثلة تضرب لأن المثل وعناه الحكمة السائرة والحكاية القصيرة ذات المغزي والأساطير فهو علي هذا قول سائر شبه مضربه بمورده أوقل شبه فيه حال المقول فيه ثانيا بحال المقول فيه أولا .. ويمتاز المثل بشهرته وايجازه ، ودقة معناه واصابة الغرض المنشود فيه، وصدق تمثيلة للحياة العامة ولافكار الشعب علي وجه الخصوص ، وهو يكسب الكلام سحرا وروعة وجمالا وبلاغة وتقال الأمثال الفرضية للحذر من استبداد المستبدين وطغيانهم وهي وسيلة للنقد والسخرية حقا ، والأمثال أصدق شيء يتحدث عن أخلاق الأمة وتفكيرها وعقليتها وتقليدها وعاداتها ، ويصور المجتمع وحياته وشعوره أتم تصوير، وهي مرآة للحياة الاجتماعية والسياسية والعقلية . (١)

وهناك أمثال حقيقة لها قائل معروف في الغالب ولها أصل بخلاف الأمثال الفرضية التي نسجها الأديب بخياله ووضعها علي لسان حيوان أو جماد أو طائر لمعالجة مشكلة من مشاكل المجتمع الذي يعيش فيه .

وبالنظر فيما قدمنا من نماذج لهذه الأمثال الفرضية نري أن - المؤلف أو الأديب حاول أن يرسم صورا مضيئة لاتساع الرويا أمام الناس ليتداركوا الأمور التي تنقص من حقوقهم وتلقي بهم في بحار الضياع ، فارشاد وتوجيه وتحذير وتنفير من صور ماثلة أمام الإنسان الذي يتخيلها .

(١) الحياة الأدبية في العصر الجاهلي ١٤٨ .

والخلاصة أن هذه الأمثال التي ضمت هذه الأساطير الخيالية تجعلنا نقف في ذروة الفخر بهؤلاء الأدباء العرب الذين استطاعوا بخيالهم وفي عزلتهم أن يأتوا لنا بمثل هذه النماذج الأدبية الرائعة التي لعب فيها خيالهم دورا فعالا قبل أن نتعرف علي الاساطير التي ألفها العجم ولا يليق بنا أن نقول بأن هذه النماذج اخترعها الرواة بعد أن أطلعوا علي الآداب الأخري اليونانية والاغريقية فهذه طبيعة بشرية قد يتحدد فيها الاتجاه في التفكير وهو ما نسميه بتوارد الخواطر فلا يليق بنا أن نزعم بأن العرب تطفلوا علي مائدة الأدب العالمية واخترع الرواة مثل هذه النماذج الأدبية وفي الحقيقة أن هذه النماذج التي حفلت بها المصادر الأدبية قليل من كثير قد انطمست معالمه وتواري بأيدي المستشرقين والمستعمرين فلا نستكثر علي أمة فصيحة بليغة مثل هذه النماذج الأدبية التي جاءت بها قريحة الأديب العربي منذ زمن بعيد .

اعداد

الدكتور / تمساح علي أحمد نحيلة

مدرس الأدب والنقد في كلية اللغة

بأسيوط